نسبهم

ينسبون إلى بني إسرائيل.

موقعهم الجغرافي

مصر.

صفاتهم غلب عليهم الشرك والجهالة.

حياتهم

رأى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو صغير قبل أن يحتلم، كأن أحد عشر كوكبًا، وهم إشارة إلى بقية إخوته، والشمس والقمر، هما عبارة عن أبويه، قد سجدوا له، فهاله ذلك، فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها، وأن لا يقصها على إخوته، كيلا يحسدوه، ويبغوا له الغوائل، ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتمتها ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، أي يفهمك من معاني الكلام، وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾، أي بالوحي إليك ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، أي بسببك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾، أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة، كما أعطاها أباك يعقوب وجدك إسحاق ووالد جدك إبراهيم الخليل ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف:٦].

ووقع ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ما قال الله عنه وما جرى له من بلاء شديد، فحسده إخوته وألقوه في غيابة الجب، وادعوا أن الذئب أكله، وحجم المصيبة التي أصابت والده نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصبره على ما وقع عليه من بلاء، وما وقع من بيع يوسف بثمن بخس، وتقلبه في أودية البلاء، حتى صار في بيت الملك، وتعرض لفتنة امرأة العزيز، وما جرى له من فتنة مهلكة، لولا عصمة الله له، ثم تعرضه لمحنة الحبس، وما جرى له فيها، ثم تم التمكين له في الأرض.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف:١٩]، أي هو عالم بما تمالأ عليه إخوته، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم، ومع هذا لا يغيره تعالى لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، والقدر السابق، والرحمة بأرض مصر بما يجري الله على يدي هذا الغلام، الذي يدخلها في صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور، وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم، بما لا يحد ولا يوصف. وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي وكما قيضنا هذا العزيز، وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به، مكنا له في أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾، أي فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١].

أي إذا أراد شيئًا فإنه يقيض له أسبابًا، وأمورًا لا يهتدي إليها العباد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٢١-٢٢].

والذي يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه، وبرأه ونزهه عن الفاحشة، وحماه عنها وصانه منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف:٢٤-٢٥].

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم، أي ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت، ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية، وأخمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها، فسجن بسببها، فسجنوه ظلمًا وعدوانًا، وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾، كان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما، فلما رأيا يوسف في السجن، أعجبهما سمته وهديه ودله وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، وقالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]. فأخبرهما أنه عليم بتعبيرهما خبير بأمرهما. و ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:٣٧]، قيل: معناه مهما رأيتما من حلم، فإني أعبره لكما قبل وقوعه، فيكون كما أقول.

وقال لهما: إن هذا من تعليم الله إياي، لأني مؤمن به، موحد له، متبع ملة آبائي الكرام: إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾، أي بأن هدانا لهذا ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه، ونرشدهم وندلهم عليه،

وهو في فطرهم مركوز، وفي جبلتهم مغروز ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٨].

ثم دعاهم إلى التوحيد، وذم عبادة ما سوى الله ﷻ، وصغر أمر الأصنام وحقرها وضعف أمرها. فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠]، أي هو المتصرف في خلقه، الفعال لما يريد، الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾، أي وحده لا شريك له ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، أي المستقيم والصراط القويم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠]، أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره، وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما، مما سألا عنه وطلبا منه، ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه.

لما أحاط الملك علمًا بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام، وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه، أمر بإحضاره إلى حضرته، ليكون من جملة خاصته، فلما جاءه الرسول بذلك أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلمًا وعدوانًا، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتانًا.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف:٥٤-٥٧]، أي أجعله من خاصتي، ومن أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتي، فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، أي ذو مكانة وأمانة ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥]. طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سني الخصب، لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك أنه حفيظ، أي قوي على حفظ ما لديه، أمين عليه عليم بضبط الأشياء، وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف:٥٦]، أي بعد السجن والضيق والحصر صار مطلق الركاب بديار مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾، أي أين شاء حل منها مكرمًا محمودًا معظمًا ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، أي هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن، مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل؛ ولهذا قال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف:٥٧].

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الديار المصرية يمتارون طعامًا، وذلك بعد إتيان سني الجدب وعمومها على سائر البلاد والعباد، وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية دينًا ودنيا، فلما دخلوا عليه عرفهم، ولم يعرفوه، لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من المكانة والعظمة، فلهذا عرفهم وهم له منكرون. ثم لما رأى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع عرف أن هذه الدار لا يقر بها من قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فانٍ، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه وهو خير المسؤولين أن يتوفاه، أي حين يتوفاه على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين[1].

فلقد كان الشرك في قوم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان من منهجه في محاربته ما ذكره الله عنه وهو في السجن عندما خاطب المسجونين ودعاهما إلى توحيد الله. فقد كان الشرك سائدًا في مصر، كسائر الأمم القديمة، وقد كان لكل مدينة في مصر يومئذ معبود، لا يشبه ما يجاورها من المدن، وكان لكل مدينة أو مقاطعة صغيرة آلهتها الخاصة، وعبادتها المختلفة، فكان موطن أوزيريس في أبيدوس، وفتاح في منفيس، وآمون في طيبة، وهوروس في أدفو، وهاتور في دندرة، ورع في هليوبوليس، وآتون في هرموبولس، وغيرها كثير هنا وهناك، وكانت مكانة الآلهة

(١). البداية والنهاية: أبوالفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مرجع سابق (١/٤٥٦-٥٠٥) بتصرف.

مستمدة من مكانة المدينة أو المقاطعة التي يعبد فيها، وهكذا كانت الآلهة مراتب متفاوتة، تبعًا لتفاوت مراتب المقاطعات السياسية. كما كانت لهم معبودات أخرى: كالشمس، والأسد، وابن آوى، وغير ذلك من الحيوانات.

وقد غاظ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ما شاهده من انحراف شنيع عن عقيدة التوحيد، فلما واتته الفرصة في أثناء وجوده في السجن، صاح في أولئك الناس قائلًا لهم: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٣٩ ٤٠].

لقد رسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكلمات القليلة الناصعة، الحاسمة المنيرة، كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة، كما هز بها كل قوائم الشرك هزًّا شديدًا عنيفًا ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾. إنه يتخذ منهما صاحبين، ويتحبب إليهما بهذه الصفة المؤنسة، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة، وجسم العقيدة، وهو لا يدعوهما إليها دعوة مباشرة، إنما يعرضها قضية موضوعية: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها، ويهزها هزًّا شديدًا.

إن الفطرة تعرف لها إلهًا واحدًا، ففيم إذا تعدد الأرباب؟ إن الذي يستحق أن يكون ربًّا يعبد ويطاع أمره، ويتبع شرعه، هو الله الواحد القهار، ومتى توحد الإله، وتقرر سلطانه القاهر في الوجود، فيجب تبعًا لذلك أن يتوحد الرب وسلطانه القاهر في حياة الناس، وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد، وأنه هو القاهر، ثم يدينوا لغيره، ويخضعوا لأمره، ويتخذوا بذلك من دون الله ربًّا.

إن الرب لا بد أن يكون إلهًا يملك أمر هذا الكون ويسيره، ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله ربًّا للناس، يقهرهم بحكمه. والله الواحد القهار، خير من يدين الناس لربوبيته، من أن يدينوا للأرباب المتفرقة الأهواء الجاهلية العمياء، عن رؤية ما وراء المنظور القريب، كالشأن في كل الأرباب إلا الله. وما شقيت البشرية قط، مثل شقاءها بتعدد الأرباب وتفرقهم، وتوزع العباد بين أهوائهم وتنازعهم.

والذي لا شك فيه أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، قد عاش بين قومه الوثنيين يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويبلغهم رسالة ربه، وينصح لله تعالى ما استطاع، لكنه لم يتمكن من أن يحقق بينهم كل ما يرجوه من دعوته، وظل قومه في شك مما جاء به، كما أشار إلى ذلك مؤمن آل فرعون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤][1].

(١). منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام: د. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، =

العبر والعظات المستفادة

١. لا تدوم الحال علىٰ أمر واحد، فقد ينتقل من محنة إلىٰ محنة، ومن محنةٍ إلىٰ منحة ومنَّة، ومن ذلٍّ إلىٰ عزٍّ، ومن أمنٍ إلىٰ خوفٍ، ومن مُلكٍ إلىٰ رقٍّ، ومن فُرَّقةٍ وشتاتٍ إلىٰ اجتماعٍ وانضمامٍ، ومن سُرورٍ إلىٰ حُزنٍ، ومن رَخاءٍ إلىٰ جدبٍ، ومن ضِيقٍ إلىٰ سَعة.

٢. العدلُ مطلوبٌ في جميعِ الأمور الصغار والكبار، ومن ذلكَ مُعاملة الوالدين للأولاد، فلابد من التَّسوية بينهم، وعدم إيثار بعضهم علىٰ بعض، ومتىٰ حصل ذلك اختلَّ نظامُ الأسرة، ووقع ما يكدر الصفو، ويعكر طعم الحياة.

٣. العبرةُ بالنهايةِ لا بالبداية، وهكذا كان أمر إخوة يوسف، تَابُوا واسْتغفروا، وسَمحَ لهم يعقوب ويوسف، وإذا سمح العبدُ فاللهُ أولىٰ بذلكَ وهو خير الراحمين.

٤. إذا ابتُلي العبدُ بمواطنِ الريبةِ وأماكن الفتنة، فينبغي له أن يهرب، لئلا تُدركه أسبابَ المعصيةِ فيقع ثمَّ يندم.

= عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م (١/٢١٥-٢١٨).

٥. ما كانَ عليهِ يُوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجمالِ الظاهرِ والباطنِ، أمَّا الظاهرُ فهو الذي بسببهِ حَصلَ له ما حصل من امرأةِ العزيزِ، ومن النساءِ اللاتي كُنَّ يَلُمنها علىٰ فِعلها، وأمَّا جَمالُ الباطنِ فهو العِفَّةُ العظيمةُ مع وجودِ الدواعي الكثيرة لوقوعِ السُّوءِ مِنه. لكن ما قذفَ الله في قلبهِ من الإيمانِ والإخلاصِ وقُوةُ الحقِ طَردَ عنهُ الرَّذيلة، وجَعلهُ بَعيدًا عنِ السُّوء، وهذا ما جعلهُ عَظيمًا في نُفُوسِهم أَجمعين.

٦. اختار يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ السِّجن وقدمهُ علىٰ الوقوعِ في المعصيةِ، وهكذا ينبغي للعبدِ إذا كانَ الخيار بين أمرينِ أحدهُما عُقوبة له عَاجلة، تؤول إلىٰ أجرٍ عظيمٍ في الآخرةِ، والأُخرىٰ مَعصية، فينبغي ألا يتردد في ذلك، ويُقدم ما فيه الخير له في الآخرةِ، وإن كان ظَاهرهُ عُقوبة في الدُّنَّيا، وقد كانَ السِّجنُ طَريقًا ليوسف إلىٰ العزةِ في الدُّنَّيا والفوزَ في الآخرة.

٧. العبدُ الصادقُ مع ربهِ ينبغي أن يلتجأ إليه، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حَولهِ وقوته، وعلىٰ العبدِ أن يعبُدَ ربه حَالَ الرَّخاءِ والشِّدةِ علىٰ حدٍّ سَواءٍ.